

## القديسة مريم المصرية

إنَّ المعلومات التي بين أيدينا عن سيرة حياة القديسة مريم المصريَّة قد حصلنا عليها من الاعتراف الذي قامت به مريم أمام شيخ ناسك في البرية شرقي نهر الأردن

كان زوسيماس طفلاً .عاش في القرن السادس في أحد الأديرة الفلسطينية شيخ صالح اسمه زوسيماس عندما زار الدير المقدس لأول مرّة. كان زوسيماس لمدة سنوات عديدة ينفذ تعليمات القواعد الرهبانية بدقة وبضمير صالح، حيث كان يقضي وقته في الصوم والصلاة وفي التسبيح ودراسة الكتاب المقدس. وبعد أن قضى نصف مسيرة حياته الأرضية وعندما كان في الثالثة والخمسين من عمره اضطرب زوسيماس من فكر غريب: " هل يوجد في العالم راهب بإمكانه أن يظهر لي هكذا مساعي وهكذا فضائل كالتي أنا لم أنجزها بعد؟ أ سيتواجد في البرية إنسان الذي يمكن أن يكون قد نفذ أكثر من هذه التي أنا نفذتها؟" وبينما هو متفكر بهذا الأمر ظهر له ملاك الرب وقال له: " يا زوسيماس لقد كنت حتى الآن تسعى سعياً حسناً وقد عبرت سعي الصوم بجدارة. لكن يوجد هناك مساعي أكبر من هذه التي قمت بها أنت. إذا كنت ترغب بأن تعرف كم من المسالك يوجد بعد فإذهب إلى الدير الذي يقع بالقرب من نهر الأردن."

سمع زوسيماس للنصيحة المعطاة له من قبل الملاك واتجه نحو الدير الذي أشير له إليه. قبله أخوة الدير بمحبة وقد كشف لهم زوسيماس أنه أتى لكي يقتدي بحياتهم بوحى إلهي. كان النظام صارماً في هذا الدير. وقد كانت حياة الرهبان فيه هادئة ومقدسة. لقد كانوا يعملون باستمرار ويصلون ويتناولون طعاماً متواضعاً قليلاً أي بالخبز والماء لكن وقبل كل شيء كانوا يبحثون عن طعام كلمة الله الهنيء. قليلاً ما كانوا يتكلمون ولم يكن كلام فارغ يخرج من أفواههم. ولم يكونوا يفكرون في الأمور الدنيوية مطلقاً. نادراً ما كان أحد من الإخوة يغادر الدير ولذلك كانت أبواب الدير موصدة دائماً

كانت أبواب الدير تفتح مرّة واحدة في السنة. وكان هذا ما يحصل في الأحد الأول من الصوم الكبير. كان الإخوة في هذا اليوم بعد أن يكون قد تقربوا بالأسرار المقدسة وأخذوا معهم القليل من الطعام يغادرون الدير ويتجهون نحو نهر الأردن. وهناك كانوا يودعون بعضهم بعضاً وبعدها كان كل واحد منهم يختلي في البرية حيث كان يقضي كامل الصوم الكبير في مساعي صالحة. وكانوا يعودون إلى الدير في الأحد الذي يسبق أحد القيامة أي أحد الشعانين. وكان لا أحد منهم يسأل أحدهم في أية مساع كان قد قضى هذه الفترة الزمنية أو بمن كان قد التقى في البرية. إنَّ الشاهد الوحيد لأعمال كل واحد منهم كان ضميره الخاص

خلال المرّة الأولى للصوم الكبير من بعد وصوله إلى الدير ذهب الشيخ زوسيماس على مثال جميع الإخوة وكان يقوي قواه البدنية بالطعام القليل الذي كان يحمله. إلى البرية حيث كان ينفذ قانون صلاته اليومية معه وأما روحه فقد كان يغذيها بطعام الصلاة العديم الفساد. وقد مشى مدة عشرين يوماً متوَعلاً في البرية. في أحد الأيام وقد كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً لاحظ زوسيماس بتعجب كبير إنساناً على بعد

مسافةً عنه. بدأ زوسيماس يدعو الإنسان بفرح لكنّ ذلك عندما سمع صوت زوسيماس بدأ يبتعد مُسرِعاً فأخذ الشيخ يلاحقه لكنّه لم يقدر أن يصل إليه. عندما وصل زوسيماس بالقرب من وادٍ جافٍ صرخ زوسيماس بكامل قواه للإنسان الغريب: " لماذا تهرب منّي أنا الشيخ الخاطيء؟ قف مكانك! باركني وصلّ من أجلي." لقد سمع زوسيماس جواباً على سؤاله: " يا أبتى زوسيماس أنا لا أقدر على أن آتي إليك. إن كنت ترغب أن تباركني ارم لي بوشاحك. فأنا امرأةٌ عاريةٌ لأنّ رداي قد ابتلى منذ زمن بعيدٍ في هذه الصحراء القاحلة." كان زوسيماس مندهلاً من أنّ المرأة الناسكة كانت تعلم باسمه. نفذ زوسيماس رغبتها على الفور. وبعدها ارتدت مريم عباءته اقتربت منه وسجدت له وقالت: " يا أبتى زوسيماس يجب عليك أن تباركني وتصلّي من أجلي لأنك كاهنٌ وتقف أمام العرش المقدّس وتقدّم تقادم الأسرار الإلهية." فخرّ الشيخ على وجهه مضطرباً أمامها وقال: " أيتها الأمّ الروحية أنت قد تقربت من الله من بعدما أمّت جسدك. وقد ظهرت فيك عطايا سماويةٌ: " أنت تعرفين اسمي وتدعيني كاهناً ولكنك لم تريني يوماً قطّ. ولذلك أنت من يجب أن تباركني." عندها باركته مريم وقالت:

ليكن مباركاً الله الذي يؤدّ الخلاص لكلّ نفسٍ بشريةٍ. لقد أتت بك نعمة الرّوح القدس إلى هنا لكي تعني " قلّ لي يا أبتى كيف يعيش المسيحيون الآن وما هو وضع كنيسة. بجسدي عندما حان زمن رحيلي من هنا "الله المقدّسة؟

فأجابها الشيخ: " بسبب صلوات قديسيه أعطى الله سلاماً للعالم. لكن وأنت أيضاً صلّ من أجل كلّ العالم "ومن أجلي أنا الخاطيء

يليق بك أكثر يا أبتى زوسيماس أن تصلّي من أجلي ومن أجل الجميع لأنك أنت كاهنٌ وقد عُيّن لك هذا " من الله لكنّي سأنفذ الوظيفة التي عيّنتها لي

بعدها قالت ذلك رفعت مريم عينيها نحو السماء وصلّت طويلاً بدون أن تتكلّم. كان زوسيماس خافض الرأس صامتاً دون أن يتكلّم أيضاً. وعندما رفع عينيه لاحظ متعجباً ومضطرباً بأنّ الناسكة قد ارتفعت عن الأرض وبقيت في الهواء متابعهً صلاتها. فاستولى خوف على الشيخ الصالح. فوقع على الأرض وكان يمتلأ بالدموع ويكرّر " يا ربّ ارحم. " ظنّ زوسيماس من شدّة خوفه بأنّ أمامه لا يصلّي ويقف إنسانٌ حيٌّ بل سرابٌ. عندها سمع صوت الناسكة

لماذا يا أبتى زوسيماس تخلّ بك مثل هذه الأفكار؟ فأنا لست روحاً بل امرأةٌ خاطئةٌ وُلدت من جديد عن طريق مياه المعمودية. ولست سراباً بل أرضٌ وترابٌ ورمادٌ إنني جسدٌ حقيقي أنا التي لم تفكّر بشيءٍ في حياتها قطّ

بعدها تلفّظت مريم بهذا رسمت إشارة الصليب وأضافت: " لقد نجّانا الله من الشرير ومن فخاخه لأنّ

الشريير خاض معركة كبيرة ضدنا! عندما سمع العجوز ذلك ركع عند قدميها باكياً وقال: " فُصي عليّ عن حياتك وعن أعمالك. لقد فهمت الآن لم اقتادني الله إلى هذه البرية. اروي لي عن مساعيك ليس كي تفتخري بهم بل كي تعلميني العبرة منها

فأجابته الناسكة: " بما يمكنني أن افتخر أنا التي كنت لفترة طويلة تابعة للشيطان؟ أخجل من أتكلّم عن سيرتي. لكنّي سأكشف لك عن أعمالي لكي تعلم بكم من الخزيّ ممتلئة نفسي سأقصد عليك كلّ شيء. ولم لكنّي أرجوك ألا تتوقف عن الصلاة لأجلي. كي أجد وأنا أيضاً الرّحمة في يوم الدّينونة. أصمت عن شيءٍ لقد ولدت في مصر، عندما كان عمري اثنا عشرة سنة هربت من بيت أبي وذهبت لكي أعيش في الإسكندرية. لقد فقدت بتوليّتي في وسط إغراءات المدينة الرّائعة والكبيرة وأسلمت نفسي لحياة الفجور والخطيئة. هكذا كانت تمرُّ بي سنوات شبابي. وفي أحد الأيام - كان ذلك في وقت الحصاد- رأيت بأنّه كان كثيرٌ من النّاس يتجهون نحو شاطئ البحر. وعلمت أنّهم سيسافرون إلى أورشليم، حيث سيذهبون بمناسبة عيد رفع صليب الرّب. فركضت وراء الشعب وترجّيتهم كي يأخذوني أنا أيضاً معهم على متن السفينة. كنت سعيدة بين الجمع الصّاحب والكثير العدد. وكنت طوال مدّة سفري بحراً أعوي مرافقي رحلتي بتصرّف العديم الحياء. يا رجل الله! أيّ فاه يمكنه أن يروي وأيّ أدنٍ يمكنها أن تستمع إلى الأعمال النجسة التي فعلتها على متن السفينة؟ وعندما وصلنا إلى أورشليم توجّهت مع الشعب إلى الكنيسة. وقد كان الطريق ضيقاً للغاية حتّى أنّي تسللت إلى الباب بصعوبة. وعندما وقفت على عتبة الباب كانت قدرة خفية توقفتني وأنا لم أستطع أن أعبرها. فانسحبت جانباً بعد أن تعبت واضطربت كي استجمع قواي لأنّي ظننت أنّه بسبب ضعف قوتي النسائية لم أتمكّن من الدّخول إلى الكنيسة. وبعد قليل ذهبت مع جماعةٍ أخرى من المُصلّيين لكنّ تلك القوّة ذاتها أوقفتني هذه المرّة أيضاً. عندها عدت ووقفت في إحدى زوايا باب الهيكل متفكّرةً لماذا لا أستطيع أن أدخل إلى الهيكل مثل الآخرين وأن أعين صليب الرّب المحيي وفجأةً أثار نورٌ إلهي قلبي وانفتحت عيني الروحية وفهمت حينئذٍ أن خطاياي هي تلك القوّة الغير المرئية تذكّرت عندها وأنا منكسرة النفس حياتي الماضية فارتعبت من أعماق. التي لا تدعني أدخل إلى الهيكل وعندما رفعت عيني. قلبي الساقط. بكيت طويلاً. وكنت أرثي وأقرع على صدري بسبب خطاياي الثقيلة. رأيت صورة والدة الإله. فبدأت أصلي بحرارة بدون أن انزل عيني من هذه الصورة الطيبة

وكنت أهرس: " أيّتها العذراء الفانقة النقاء لقد عرفت نفسي بأنني خاطئة كبيرة ولست مستحقّة حتّى أن أعين صورتك الفانقة النقاء. لكنّي كنت قد سمعت أنّ ابنك قد أتى لكي يدعي الخطاة إلى التوبة. ساعديني لكي أدخل أنا أيضاً إلى الهيكل وأن أعين تلك الخشبة التي صلّب عليها الإله المولود منك. أهديني هذه الرّحمة حتّى أتمكّن وأنا أيضاً من السجود لصليب الرّب الكليّ الإكرام! إن أنا تشرّفت بهذا الفرحة فأنا سوف أتخلّى عن حياتي الخاطئة التي عشتها حتّى الآن وسأذهب إلى حيثما تأمريني. " هكذا كنت أصلي وقد بدا لي أنّ صلاتي قد سمعت من قبل العذراء. فاتجهت مجدداً بحماسٍ وخوفٍ نحو مدخل الهيكل فدخلت هذه المرّة دون أن أبذل جهداً إلى داخل الهيكل. سجدت بتواضع وقد استولى عليّ فرحٌ سماوي وقبّلت صليب الرّب. بعدها خرجت وعدت مجدداً أمام إيقونة والدة الإله وركعت أمامها وتابعت صلاتي

أيتها المنعم عليها والدة الإله العذراء. لقد أظهرت تجاهي محبةً كبيرةً ورحمةً عظمى. ولم تشمئزي من " صلاة زانيةٍ لا استحقاق لها. وأهديتني فرصةً كي أرى القُدسات التي لم أكن مستحقّةً حتّى أن أنظر إليها. أنا مستعدّةٌ لكي أنفدّ وعدي. كوني لي مرشدةً وأظهر لي الطريق الذي يقود إلى التوبة." عندها سمعت صوتاً ما بعيداً حيث قال لي: " إن عبرت من وراء الأردن هناك ستجدين راحةً لنفسك." فخضعت لذلك ولقد أعطاني إنسانٌ غريبٌ بعضاً من المال فاشتريت به ثلاثة أرغفة من .الصوت وبدأت سفري مباشرةً الخبز وبعدها سألت النَّاسَ بأيّ اتجاهٍ يقع نهر الأردن وأكملت سيرتي. وحظيتُ حوالي الساعة التاسعة صباحاً بمعاينة صليب المسيح المقدّس ووصلت عند غروب الشمس إلى دير القديس يوحنا السابق الذي بعد أن غسلت يديّ ووجهي في النهر المقدّس عدتُ إلى الهيكل وتقرّبتُ .يقع بالقرب من نهر الأردن .بالأسرار المقدّسة. وأكلت نصف الرغيف الأوّل وشربت ماءً ونمت على الأرض

وفي اليوم التالي عبرتُ النهر بعد أن تضرّعتُ إلى والدة الإله وأتيتُ إلى هذه البريّة حيث انفردتُ وسكنتُ هنا منتظرةً الله أن يخلّصني من ضعف نفسي ومن عواصف هذه الحياة." فسألها زوسيماس: " هل صار مرّت سبعةً وأربعون سنةً منذ خروجي من المدينة المقدّسة." فسألها " لك زمانٌ هنا؟" فأجابت فأجابت: " يصعب عليّ أن "زوسيماس:" وكيف عشتِ كلّ هذه المدّة بعيدةً عن الناس؟ وبما كنت تتغذّين؟ أروي لك عمّا عشتُهُ في هذه البريّة. ولا أجروُ أن أذكر لك عن الأفكار الرديئة التي كانت تعذبني كالحيوانات المفترسة مدّة سبعة عشر سنةً. لقد أحضرتُ معي إلى هنا رغيفان ونيف من الخبز ولكنهما سرعان ما نفذوا مني. عندها توجّب عليّ أن أتغذى بجذور نباتيّة وأن احتمل الجوع. كنت أتعدّبُ جدّاً عندما كنت أتذكّر عن الطعام اللذيذ الذي كنت أتناوله في مصر. عندما كنت أتناول الغذاء القليل في البريّة أي الأعشاب والجذور النباتيّة كنت أشتهي اللحم والسمك اللذين كنت أمتلكهما يوماً ما بكثرة. كثيراً ما لم أكن أعثر على ماءٍ لأروي به عطشي في هذا المكان. وقد كنت أتفكّر في تلك الأنواع من النبيذ التي كنت يوماً ما أشرب منها كثيراً. أحياناً كانت تظهر لديّ رغبةً في أن أغني تلك الأغنيات الوضيعة التي كانت سابقاً تسبّب لي فرحاً. لكنّي بعد استعادة رشدي كنت أبدأ بالبكاء وبقرع صدري حتّى ينيرني نورٌ عجيبٌ ..ويهدئني. ( يتبع )